حلم الحريّة والتغيير

ياسر شعبان

كان السؤال المتكرر الذي لاحقني به الجميعُ خلال أزمة «الروايات الثلاث» هو: لماذا أنت صامت؟ لِمَ لا تدافع عن نفسكَ وإبداعكَ؟

وبصدق، كنتُ حينَها مصدومًا غيرَ قادر على استيعابِ ما يدور حولي من أحداث. وسيطرتْ عليَّ حالةٌ كابوسيّةٌ يتشابه في داخلها كلُّ شيء ولا تَخْضع لقوانين إنسانيّةٍ أو ماديّة؛ فكلُّ شيء قابل (بل ومستعدّ) لأن يتحوّل ـ ببساطة ودون عناء ـ إلى مبرِّرات ودوافع.

في البدء كانت أزمةُ رواية **وليمة لأعشاب البحر** التي هبّ فيها الجميعُ يدافعون عن حريّة الإبداع. ولم ينقضِ وقتٌ حتى ثارت أزمةُ «الروايات الثلاث» التي صادرتْها وزارةُ الثقافة عام ٢٠٠١، وكانت روايتي **أبناء الخطإ الرومانسيّ** واحدةً منها. وبعد فترة من هدوء هوجة الروايات الثلاث، بدأتُ أسأل نفسي بعضَ الأسئلة حول الحريّة والرقابة والمجتمع المدنيّ ومؤسّسات الدولة والإبداع، فلم أجد إجابات واضحة، لكنّني بدأتُ أتلمّس بعض بدايات طرق قد تؤدّي إلى أفق من الإجابات. وبدأتُ أتبيَّن وجودَ فروق أساسيّة لا يمكن أن تتلاشى بين حريّة الإبداع وحريّة المبدع وحريّة المجتمع ـ وهو ما سأتطرّق إليه لاحقًا. لكنني أريد في البداية أن أشير إلى قناعات تبلورتْ لديّ بعد تلك الهوجة.

قناعاتي الجديدة

تتلخّص قناعاتي هذه في ٣ محاور:

١ ـ أنّ انتهاء هذه الأزمة من غير أن أتعرّض لتحقيقات النيابة أو لمحاكمة قضائيّة (أو، بصراحة أكثر، من غير أن أتحوّل إلى كبش فداء) جعلني أعيد التفكيرَ في تشكّكي تجاه مؤسّسات الدولة، وجعلني أرى أنّ هناك مؤسساتٍ قد تكون غيرَ ناضجة بما يكفي أو قد يكون فيها قَدْرٌ من الفساد ولكنّها موجودةٌ ـ رغم ذلك ـ ولها دور في الصراعات وفي حسابات توازن القوى وفي المناورات.

٢ ـ لا وجود لفكرتيْن لاكتْهما الألسنُ مثل الأفيون، وبخاصةٍ ألسنُ المشتغلين بالسياسة والثقافة، وهما فكرة الأحزاب السياسيّة والمثقفين. ففي هوجتيْن متتاليتيْن (الأولى **الوليمة**، والثانية الروايات الثلاث) تغيَّرتْ مواقفُ الأحزاب السياسيّة والمثقفين ١٨٠ درجةً، دون أدنى مبرِّر أو حتى رفّة جفن من خجل. ويكفي أن نَذْكر موقفَ أحزاب المعارضة الثلاثة (التجمُّع والناصريّ والوفد) من أزمة **الوليمة**، وكيف هبَّت هي وصحفُها وأقلامُها لمواجهة قوى الظلام التى تريد قمعَ العقل الإبداعيّ، وكيف سارعتْ إلى مساعدة وزارة الثقافة والحكومة في الخروج من كمين جريدة **الشعب** وحزب العمل: ولكنّها كيف هبَّت هي نفسُها في المرة الثانية ولكنْ في الاتجاه **المضادّ**، وضدّ حريّة الإبداع، وتحت زعم «الآداب العامة» و«ثوابت الأمّة» و«إزاحة الغمّة،» وأيضًا لمساعدة

وزارة الثقافة والحكومة فى النجاة من «كمين مزدوج» أعدّه الإخوانُ المسلمون ببراعة. ولم تتنبّه تلك الأحزابُ أنّ أزمة الروايات الثلاث كانت مجرّدَ بالون اختبارٍ أطلقه الإخوانُ المسلمون للتحقق من مدى ثبات الموقف الذي اتخذته الوزارةُ والمثقفون خلال أزمة **الوليمة**، ولاختبار قوّة وزارة الثقافة والمثقفين والأحزاب (بل ولفضحهم جميعًا). لكنّ المدهش أنّ الوزارة والمثقفين والأحزاب حَوَّلتْ بالونَ الاختبار إلى كرة ثلج كادت أن تطيح بالجميع بعد أن أطاحت بكثيرٍ من الأقنعة والملابس، لتكون الفضيحة «بجلاجل» ـ حسب التعبير الدارج.

٣ ـ حسمتُ أمري تجاه بعض القضايا ومنها:

ـ أنّ الثقافة مهنة، ومن الضروريّ بالنسبة إليّ أن أتعامل معها كوسيلة لكسب العيش لا كهواية أو كعمل وطنيّ، وأنه لا تعارض بين الإبداع من جهة والتعامل مع الثقافة كمهنة من جهة ثانية.

ـ أنّه لا بديل عن الحقّ في المواطنة. فليس من حماية حقيقيّة من غير وجود وطن قويّ ومؤسّسات قويّة تعترف بحقوق المواطنة. كما أنّ الجماعات (معظم الجماعات «منفعجيّة» و«أرزقيّة») لا أهميّة لها في غياب مؤسّسات دولة قويّة.

ـ ألاّ أَسْقط أبدًا في شَرَك المزايدات على أيّ شيء، وخاصة على وطني الذي أعتبره مثلَ جبل الثلج: لا يبدو منه فوق سطح الماء سوى الثّلث فقط، وأما الثلثان الآخران فهما في داخلنا وفي العمق التاريخيّ والثقافيّ والحضاريّ.

ـ ألاّ أندفع أبدًا وراء بريق عدسات تصوير المحطّات التليفزيونيّة (بل والصحفيّة نفسها) حتى لو تُركتُ أقولُ ما أريده بحريّة تامة؛ ذلك لأنّ هذه الوسائل ستستخدمني مثلَ ممثّلٍ مبتدئ، فتَخْتصر دورَه في جملة أو جملتيْن تَخْدم أغراضها. لهذا فإنّني منذ الأزمة رفضتُ المشاركة سوى بشهادة واحدة أدلَيْتُ بها لصحيفة **أخبار الأدب** المصريّة نظرًا إلى دورها في الدفاع عن حريّة التعبير. والمكان الثاني الذي أقدّم له شهادتي هو مجلة الآداب، لتاريخها المشرّف الذي لم تتوانَ خلالَه في الدفاع عن حقوق الإنسان وحريّة الإبداع على مدى وجودها.

روايتي صادَرَتْها وزارة الثقافة وهبّت ضدّها أيضًا أحزابُ المعارضة الثلاثة

حريّة المبدع

لا تقتصر كلمةُ «المبدع» على مَنْ يمارس الكتابة، بل تَشْمل كلَّ المجالات الفنيّة، مضافًا إليها كلّ مَنْ يقدّم إنجازًا متميّزًا في أيّ مجال من مجالات العمل. وفي جميع الحالات، فإنّ المبدع مواطنٌ خاضعٌ لشروط المجتمع الذي يعيش داخله: قد يرى إلى القضايا المختلفة بحساسيّة زائدة ونفاذِ بصيرةٍ لا يتوفّر للآخرين، وقد يَمْتلك وسيلةً للتعبير عن رؤيته وغضبه وآرائه، لكنّه يظلّ خاضعًا للظروف الاجتماعيّة الحيّاتيّة مثلَ المحيطين به. غير أنّ للمبدع مفهومَه عن الحريّة الذي يختلف عمّا هو شائع: فهو يتجاوز فكرةَ الانحراف أو الخروج على ما استقرّ من قواعدَ ومفاهيمَ وعاداتٍ وتقاليدَ، إلى نقدها ومحاولةِ البحث عمّا أصابها من جمود أو تشويه وأدّى إلى مزيد من الالتباس والتشويش في علاقة الناس بها. وتقودهم هذه الحالةُ النقديّةُ، الباحثةُ عن بدائل، إلى الانتباه إلى إمكانية مدّ خطوط بين الأفكار الموجودة في الكتب من جهة وتجلّيات ذلك الجمود والتشويه والالتباس والتشويش من جهة ثانية. وتبدأ محاولاتُ التجريب وإطلاقِ بالونات الاختبار في ما يكتبونه أو يقولونه، لا لاختبار قدرة المجتمع على استقبال أفكارهم وأطروحاتهم فحسب، بل أيضًا لاختبار قَدْرِ استيعابهم هم أنفسِهم لهذه الأفكار والأطروحات في علاقتها باللحظة التاريخيّة والظرف الاجتماعيّ الذي يعيشون في ظل معطياته ومتطلباته. ولا يَخْفى على أحدٍ مدى التوتّر الذي يسيطر على العلاقة بين المشتغلين بالكتابة والثقافة من جهة، والسلطةِ الحاكمة (بشقَّيْها السياسيّ والدينيّ) من جهة ثانية، وبين

أولئك الكتّاب وجموع الناس من جهة ثالثة. إنّه توتُّرٌ أَشْبَهُ بشعرة معاوية التي يُضْرب بها المثلُ على العلاقة الدائمةِ المراوحةِ بين الجذب والإرخاء.

«شعرة معاوية» هي أدقُّ توصيف لطبيعة العلاقة بين السلطة والمشتغلين بالكتابة والثقافة. فهناك حالةٌ دائمةٌ من التخوّف والترقّب. ذلك أنّ السلطة ترى دائمًا أنّ طائفة المثقفين ليست سوى طائفة مخرِّبةٍ ومُفْسِدةٍ، لا يعجبها شيء، وتوجّه الانتقاداتِ إلى أيّ عمل تقوم به السلطةُ. وأما طائفة المثقفين فترى السلطة قوّةً غاشمةً ومستبدّةً لأنّها جاءت إلى الحكم في معظم الحالات من دون انتخابات حرّة ديموقراطيّة، ولأنّها غالبًا ما تَنْتمي إلى طائفة العسكر ـ والصورة النمطيّة للعسكر هي أنّهم غيرُ مثقفين، ولا يحبّون الثقافةَ، ويرون المثقفين كائناتٍ مخنَّثةً دَفَعَها إلى الكتابة عدمُ قدرتها على «الفِعْل.» إنّها علاقةٌ مركّبة تَرْجع جذورُها إلى أعماق التاريخ الإنسانيّ، ولنذكرْ محاكمة سقراط وجاليليو وابن رشد وغيرهم. محاكماتٌ كثيرةٌ للمشتغلين بالفكر والثقافة والكتابة شهدها التاريخُ الإنسانيُّ، وانتهتْ جميعُها بالإدانة أو النفي أو الإعدام.

لكنّ هناك بعدًا آخر ـ غيرَ معلن ـ يتعلّق بالفترات التي تحتاج فيها السلطةُ إلى أولئك المشتغلين بالثقافة، تحتاج إلى أقلامهم وكلماتهم ومقالاتهم، من أجل التطهر أو غسل السمعة أو مجابهة قوى يمينيّة متطرّفة تسعى إلى الإطاحة بالسلطة الحاكمة. وحتى في حالات الاحتياج هذه، فإنّ السلطة تَسْتخدم مبدأ «ذَهَبُ المعزِّ وسيفُه» أو «الجزرةُ والعصا» فتلوِّح حينًا بالعصا والسجن والقتل، وحينًا بالذهب والمناصب. وترفع شعارَ «الذين ليسوا معنا هُمْ بالضرورة من الأعداء» ـ وهو الشعار عينُه الذي تَرْفعه أمريكا منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ وتسعى إلى توسيع الفجوة بين اليمين من جهة (الذي سيصبح اليمينَ المتطرِّفَ) واليسار ودعاة التنوير والإصلاح من جهة ثانية (الذين قد يصبحون في لحظة أخرى الملحدين دعاةَ الانحلال والتهتك). وهكذا يجد المشتغلون بالفكر والثقافة أنفسَهم بين شقَّيْ رحى: حكومة مستبدّة من ناحية، ويمين متطرّف دمويّ النزعة ديماغوجيّ الخطاب من ناحية أخرى (والعكس أيضًا صحيح، إذ يتمّ زرعُ جماعات التطرُّف الدينيّ ودعمُها لتقويض اليسار وإيقافِ سريان أفكاره في المجتمع). وبعد انتهاء دور كلا الطرفين، تنقلب الحكومةُ على الطرف الذي سبق أن دعمته لترويض بعض العناصر والتنكيل بعناصر أخرى «أكثر رومانسيّةً،» ولاسيّما تلك التي صَدَّقَتْ أنّ لها دورًا حقيقيّاً، وبناءً عليه رفعتْ شعاراتِ التغيير.

كلمة السرّ التي ترْعب أيةَ سلطةٍ في العالم هي: «التغيير» ـ التغيير الحقيقيّ الجذريّ، لا تغييرُ الأقنعة أو استبدال جسدٍ بأخرَ أكثرَ فتوّةً وحيويّةً؛ التغيير الذي يَطُول الأسسَ والمفاهيمَ والمبادئَ والقناعاتِ والأفكار. التغيير هو حلم كلّ إنسان، وخاصةً المبدعون. وهو هاجسُ كلّ مبدع جادّ يخشى الجمود. إنّه التغيير الذي يعني أنْ نتيح للآخر فرصةً للوجود، والتعبيرِ عن ذاته، والاحتجاج، وتحديدِ مسار حياته، والإبداعِ.

حريّة المجتمع

«رعبٌ أكبرُ من هذا سوف يجيء، فانفجِروا أو موتوا.»

مثلَ «الفصامي» هَرَبَ المفكّرون والفلاسفةُ من سطوة الواقع واستبدادِ أشكال السلطة فيه، إلى المدن الفاضلة. فعندما يَعْجز الإنسانُ عن المواجهة والتحدّي والدخول في معارك، وعندما يَشْعر أنْ لا فائدةَ من توجيه النقد وكشف العيوب وتقديم المقترحات والحلول، فإنّه يلجأ إلى إدانةِ كلّ ما يحيط به، ويَنْبع عالَمَه الخاصَّ الذي يحقّق له كلَّ ما افتقده في العالم الواقعيّ. إنّها صيغةٌ بديلةٌ غايةٌ في الصعوبة، وغيرُ مأمونةِ العواقب، إذْ لا أحد يَعْرف إلى متى يستطيع عقلُ هذا الشخص أو أعصابُه تحمُّلَ هذه الصيغة الهروبيّة التي لا تنجح إلا قليلاً في تحقيق انقطاع تامّ عن الواقع. وهكذا تصبح هذه الصيغة بمثابة نذير بأنّ النار كامنةٌ تحت الرماد، وبأنّها قد تَشْتعل في أيّ وقت ولأيّ سبب ودون سابق إنذار. وعندما تَنْتشر هذه الحالة، بدرجاتها المختلفة، في مجتمعٍ ما، فهذا نذيرٌ لا يَصحّ صمُّ الآذان عنه.

إنّ بمقدور كلّ ذي بصر أن يرى انتشارَ حالة اللامبالاة بين الجموع. إنّها الحالة التي يختار فيها كلُّ فرد أن يصبح هو وأفرادُ أسرته بمثابة عالم مصغّر ـ microcosm ـ أو مثلَ حيوانات رخوة تلتجئ إلى قوقعة بهدف الاحتماء، فلا تتّصل بالعالم الخارجيّ إلا بالقَدْرِ الذي تحتاجه لتحقيق بعض الاكتفاء وبأقلّ قَدْرٍ من التورُّط

والأذى. وفي هذه الحالة يصبح الآخرون (أيْ كلّ عالم آخر مصغّر أو قوقعة) هم الجحيمَ بحقّ. لكنّ هذه الحالة التي تقوم على التفتّت والانعزال هي بالتأكيد ضدّ الطبيعة الإنسانيّة؛ فهذه الطبيعة تقوم على تكوين الجماعات ومدِّ جسور التواصل والاتفاق والاختلاف وإشعال الحروب وعقد معاهدات السلام.

ولأنّ هذا ضدّ الطبيعة الإنسانيّة، فإنّه يؤدّي إلى تماثلات وتناسخات لتشوُّهات وانحرافات لا حدود لها. ويصبح المجتمع مثلَ نسيجٍ تمّ التلاعبُ بجيناته، الأمرُ الذي يودّي بدوره إلى حدوث تغيُّرات نوعيّة في تركيبة هذا المجتمع، وإلى أن تتجاوَرَ ممارسةٌ لها نكهةُ الفضيلة وأخرى لها نكهةُ الرذيلة. ويَنْطبق ذلك على كلِّ ما استقرّ بيننا من مفاهيم وقيم وعادات وتقاليد. ولأنّ «لكلّ فعلٍ ردَّ فعلٍ مساويًا له في المقدار ومضاداً له في الاتجاه،» فإنّ المقابل لأفعال التشتت والتناسخ والانعزال سيكون بالضرورة رغبةً جارفةً في التغيير. مرة أخرى: التغيير!

وعندما يَشْعر المجتمعُ أنّه قادر على المشاركة، وفاعلٌ في الأحداث، وأنّ من حقّه أن يعبِّر عن رأيه وغضبه ورغبته، وأنّه قادر أيضًا على الاختيار، يكون التغييرُ محصلّةً للمتغيِّرات الاجتماعية، لا مجرَّدَ شعار أو قرار يَسْتهدف أن يُوهِمَ الناسَ أنّ ثمة حركةً تَحْدث ـ مثلما يتوهَّم راكبو القطارات لأول مرّة أنّ قطارهم ثابتٌ عندما يمرّ قطار آخر شديدُ السرعة. لكنّ المدهش في حالتنا الآنيّة أنّ القطار لم يعد يتحرك فقط، بل هو يهتزّ من حين إلى آخر، أو يحترق من بعض الحمم التي قد تُقْلت من صور الناس. وأوّلُ أمارات هذه الحركة أن نستبدل الخيولَ العجَّز بخيول شابّة عفيّة تستطيع أن تجرّ العرباتِ القديمةَ وما عليها من أفكارٍ وخططٍ وخيولٍ متقاعدة. وبالتأكيد ستَسْمع في هذه الحالة مَنْ يقول: «لا فائدة. لقد سَقَطَ المهرُ من الإعياء، وانحلّت سيورُ العربة، وضاقت الدوائرُ السوداءُ حول الرقبة، ولا فرار. صدرُنا يلمسه السَّيْفُ، وفي الظهر جدار.»

وأقول «هل يَأْمن حضنَ الريح طيرٌ مقصوصُ الريش جريحٌ، ولو كانت الريحُ رخيّةً؟»

إشارة أخيرة

تُلحُّ عليّ في الآونة الأخيرة حكاياتُ المناضلين في فترة الستينيّات والسبعينيّات عن العلاقات الوطيدة التي جَمَعَتْهم بالمُخْبرين الذين كانوا يراقبونهم في هذه الفترة. إنّها علاقات من نوع غريب لا يُطْلب فيها من المُخْبرين أن يكفّوا عن أداء وظيفتهم التي يراها المناضلون خيانةً، وكذلك لا يَطْلب المخْبرون من المناضلين أن يتوقّفوا عن أنشطتهم المخالفة للنظام، بل ولا يكتبون عنهم تقاريرَ سيئةً، وقد يكتفون بما يمليه عليهم المناضلون من معلومات!

وبالتوازي مع هذه الحكايات أتذكّر كذلك ما قرأتُه في إحدى الروايات الساخرة عن أنظمة المراقبة المستبدّة. فلقد سقط النظامُ الحاكم، لكنّ المخبرين والرقباء ما زالوا يَعْملون بالدقّة نفسها ويسجّلون كلَّ ما يرونه في تقارير قد لا يسلّمونها أبدًا.

وقال آخر: لا فائدة.

وقال أخر: قُلْها ومُتْ.

وقال ثالث: انفجروا أو موتوا.

وأردِّد: رعبٌ أكبرُ من هذا سوف يجيء ولا يحتاج منكم أن تنتظروه!

ياسر شعبان

شاعر وروائيّ. صدرتْ له رواية **أبناء الخطإ الرومانسي** (١٩٩٩) التي منعتْ من التداول، وديوانُ شعر **بالقرب من جسدي** (١٩٩٦)، وعددٌ من ترجمات الأعمال الأدبيّة، منها **العين** لفلاديمير نابوكوف.